العدد ٨/٢٠٠٢
الأحد ٢٤ شباط
أحد الفريسي والعشار
وجود هامة يوحنا السابق المكرَّمة
اللحن الخامس
إنجيل السَحَر الخامس

الرسالة

(٢ كورنثوس ٤: ٦–١٥)

يا إخوةُ إنَّ اللهَ الذي أمرَ أن يُشرقَ من ظُلمةٍ نورٌ هو الذي أَشرَقَ في قلوبنا لإنارةِ معرفةِ مجدِ اللهِ في وجهِ يسوعَ المسيح* ولنا هذا الكنزُ في آنيةٍ خَزَفيَّة ليكونَ فضلُ القوَّةِ لله لا منَّا* مُتضايِقينَ في كُلِّ شيءٍ ولكن غيرَ مُنحصرين. ومُتحيِّرينَ ولكن غيرَ يائسين* ومُضْطَهَدين ولكن غيرَ مَخذولين. ومَطروحين ولكن غيرَ هالكين* حاملِينَ في الجسدِ كُلَّ حين إماتَةَ الربِّ يسوعَ لتظهَرَ حياةُ يسوعَ أيضًا في أجسادِنا* لأنَّا نحنُ الأحياءَ نُسلَّمُ دائمًا إلى الموتِ من أجلِ يسوعَ لتظهَرَ حياةُ المسيحِ أيضًا في أجسادِنا المائِتَة* فالموتُ إذًا يُجرَى فينا والحياةُ فِيكم* فإذْ فينا روحُ الإيمانِ بعينِهِ على حَسَبِ ما كُتِبَ إنّي آمنتُ ولذلك تكلَّمتُ فنحنُ أيضًا نؤمِنُ ولذلك نتكلَّمُ* عالمينَ أنَّ الذي أقامَ الربَّ يسوعَ سيُقيمُنا نحنُ أيضًا بيسوعَ فننتصِبَ مَعَكم* لأنَّ كلَّ شيءٍ هو من أجلِكم لكي

الفريسي والعشار

يستهل الإنجيلي لوقا مَثَلْ الفرّيسي والعشّار بعبارة يرسم فيها الإطار الذي يجب أن يُفهم فيه هذا المَثل، مُشيرًا إلى أنّ يسوع ضربه لقوم متيقّنين من برّهم ويحتقرون سائر الناس (لو ١٨: ٩). يُستنتج من هذا أنّ المَثَلْ يهدف إلى مجابهة فكرة سائدة لدى بعض سامعي يسوع أنّ البرّ مسألة بديهية تنشأ من بعض الأعمال الصالحة الخارجية، وإلى تحرير النفس البشرية من الغرور الذي ينشأ من الاقتناع بالبرّ الشخصي. ضمن هذا الإطار يختار يسوع في المَثَل شخصيتين متناقضتين إلى حدٍّ بعيد، وذلك لتأكيد الاختلاف الجذري بين المسلكين. فالفرّيسيون، في زمن يسوع، كانوا معروفين باحترامهم الشريعة اليهودية وسعيهم إلى تطبيقها بحذافيرها، فيما كان كُثُر يعتبرون أنّ العشّارين، وهم جباة الضرائب في ذلك الزمن، مفصولون عن شعب الله، وذلك بسبب تعاملهم مع السلطة الرومانية المحتلّة وتجاوزاتهم في الجباية. نظرة معظم الناس للفرّيسيين والعشّارين كانت ترتكز، إذًا، على سلوكٍ خارجي يُصنِّف البشر على أساسه، بصرف النظر عن الاستعداد الداخلي الذي يؤدّي إلى سلوكٍ كهذا.

الفرّيسي في المَثَلْ يتبنّى هذه النظرة. فهو يعتبر أنّ برّه الشخصي مسألة تقررها فقط الأعمال الصالحة التي يقوم بها، لا قرار الله الذي ينظر إلى ما وراء العمل. وإذا أخذنا في الاعتبار أنّ الصلاة اليهودية كانت تتألّف من شكر وتسبيح، نجد أنّ التسبيح يسقط تمامًا في صلاة الفرّيسي، وأنّ الشكر يصبح مناسبةً ليتحدّث فيها عن نفسه، فيشكر الله على أعماله هو، لا على حسنات الله عمومًا، ويحدّد برّه باختلافه عن الآخرين. يُضاف إلى هذا نظرة الفرّيسي الدونية إلى الآخرين، ولا سيّما إلى العشّار. فهو في صلاته يقارن نفسه بالعشّار، حاسبًا إيّاه مع الخطأة، ومطبّقًا عليه المبدأ الذي يجعل البرّ يُقاس بالأعمال، إلى درجة أنّ أعمال الفرّيسي نفسه تصبح هي منطلقه لإطلاق الأحكام على البشر.

من جهةٍ أخرى يركّز يسوع على تنازل العشّار. فهو، أولاً، يصلّي من بعيد، وكأنه يقبل وضعه الاجتماعي بوصفه منبوذًا من الجماعة اليهودية، إذ لا تهمّه نظرة الناس إليه، بل غفران

الله ورحمته. والعشّار، ثانيًا، لا يتجاسر على رفع عينيه إلى السماء، وهي بحسب الذهنيّة اليهودية مكان وجود الله، لفرط إحساسه بخطيئته أمام قداسة الله – بعكس الفرّيسي الذي يعتبر أنّ برّه قضية مفروغ منها – ويقرع صدره كتعبير ملموس عن توبته.

يأتي استنتاج يسوع في نهاية المَثَلْ ليقلب المقاييس السائدة في عصره بالنسبة إلى سلوك البشر. فالعشّار، بعد صلاته، خرج «مبرّرًا» أمّا الفرّيسي فلا. هكذا، يدحض يسوع التفسير التقليدي للبرّ ويصوغ له مفهومًا جديدًا. هذا المفهوم يقوم، أولاً، على أنّ الله هو وحده الذي يبرّر، وعلى أنّ ما يهمّه، ثانيًا، هو ميل القلب – في حالة العشّار التوبة الحقيقية التي تفترض التواضع – بما يتجاوز الأعمال في ذاتها. طبعًا هذا لا يعني أنّه يجب إهمال الأعمال الصالحة، وخصوصًا تلك التي تتوخّى خير القريب (راجع مثلاً قصّة زكّا في لوقا ١٩: ١–١٠). ولكن القراءة الجديدة التي يعطيها يسوع لمفهوم البرّ تجعل الأعمال الصالحة نابعةً من توبة القلب البشري، لا بديلاً عنها. أمّا إطلاق الأحكام في مَنْ هو خاطئ ومن هو بار فينحصر، بحسب المَثَلْ، بالله وحده. ويدلّ على هذا استعمال صيغة المجهول «مبرّرًا» التي كان اليهود يستخدمونها للإشارة إلى الله كفاعل متجنّبين بذلك ذكر الله مباشرةً.

والجدير ذكره، أخيرًا، أنّ رسالة أحد «الفرّيسي والعشّار» منسجمة، إلى حدٍّ بعيد، مع مقصد المَثَل ومرماه، وذلك عبر إعطاء الرسول بولس مثالاً حيًّا يُقتدى به. فالرسول، كما تصفه الرسالة، نموذج للانسجام بين السلوك الخارجي والاستعداد الداخلي الذي ينشأ في نفس الإنسان من تجاوبه مع نعمة الله المغدقة عليه. هكذا أتت أعمال بولس، أي تعليمه وسيرته ومحبّته وصبره والآلام والاضطهادات التي تعرّض لها، بعكس أعمال الفرّيسي، تعبيرًا عن إيمانٍ عميق بخلاص الله المعطى في يسوع المسيح، بحيث يصبح قدوة لا لتلميذه تيموثاوس فحسب، بل أيضًا لكلّ مسيحي يريد اقتفاء أثر الإنجيل.

رسالة الرسول بولس إلى أهل رومية

لقد واجه الرسول بولس، منذ بدء بشارته، ضغوطات قويّة من قِبَل المسيحيين الذين من أصل يهوديّ؛ فقد كان هؤلاء يفرضون على من يريد أن يصير مسيحيًّا أن يحفظ شريعة موسى، من ختان وحفظ السبت والامتناع عن المأكولات التي تحرّمها الشريعة وإلى ما هنالك من أعمال تفرضها الشريعة. إلاّ أن الرسول بولس أخذ توصية من أعمدة الرسل، بطرس ويعقوب ويوحنا، في أورشليم (أع١٥) ليبشّر الأمم، أي غير اليهود، دون أن يفرض عليهم شريعة موسى، باستثناء «الامتناع عمّا ذُبح للأصنام وعن الدم والمخنوق والزنا» (أع١٥:٢٩). هذا يعني أن أعمدة الرسل قبلوا فحوى إنجيل بولس أنّ الخلاص هو لكلّ من يؤمن بيسوع المسيح: «لأنّي لستُ أستحي بإنجيل المسيح لأنّه قوّةُ اللهِ للخلاص لكلِّ من يُؤمِنْ، لليهوديِّ أولاً ثم لليونانيِّ» (رو١:١٦)؛ وأنّ البرّ (أن يكون الإنسان بارًّا يعني أنه بلا لوم أمام الله) ليس بحفظ الناموس وإنّما بالإيمان: «لأنّ فيه (أي إنجيل المسيح) مُعلنٌ برُّ اللهِ بإيمانٍ لإيمان، كما هو مكتوبٌ أمّا البارُّ فبالإيمانِ يحيا» (رو١:١٧؛ راجع أيضًا تك١٥:٦؛ حبقوق ٢:٤؛ رو ٣:٤). إلاّ أن معارضي الرسول بولس

تتكاثرَ النعمَةُ بشُكرِ الأكثرينَ فتزدادَ لمجدِ الله.

الإنجيل

(لوقا ١٨: ١٠–١٤)

قال الربُّ هذا المَثَل: إنسانانِ صعدا إلى الهيكل ليُصلِّيا أحدُهما فرِّيسيٌّ والآخرُ عشَّارٌ* فكانَ الفريسيُّ واقفًا يصلّي في نفسهِ هكذا: أللَّهمَّ إنّي أشْكُرُكَ لأنّي لستُ كسائرِ الناسِ الخطفةِ الظالمين الفاسقينَ ولا مثلَ هذا العشَّار* فإنّي أصوم في الأسبوعِ مرَّتيْنِ وأُعَشِّرُ كُلَّ ما هو لي* أمَّا العشَّارُ فوقَفَ عن بُعدٍ ولم يُرِدْ أنْ يرفعَ عينَيْهِ إلى السماءِ بل كانَ يقرَعُ صدرَهُ قائلاً أللَّهُمَّ ارحمني أنا الخاطئ* أقول لكم إنّ هذا نزَلَ إلى بيتِهِ مُبَرَّرًا دون ذاك. لأنّ كلَّ مَن رفَعَ نفْسَهُ اتَّضع ومَنْ وَضَعَ نفسَهُ ارتفعَ.

تأمل

«أقول لكم إن هذا نزل إلى بيته مبررًا دون ذاك لأنّ كل من رفع نفسه اتّضع ومن وضع نفسه ارتفع» (لو ١٤:١٨).

إنّ الفرّيسيّ لما مدح نفسه صار أردأ من العشّار لأن أعماله العظيمة لم تأته بمنفعة، وهذا حماقة منه لأنه لم يستأصل الكبرياء التي هي أصل كل خطيئة وبها هدم كل شيء.

فإذا أردنا أن نظهر أعمال

البرّ المعظَّمة، لا يجوز لنا أن نتكبَّر لأنه بالتواضع تتبرَّر الأعمال. لا يجوز لنا أن نفكِّر بأننا إذا فعلنا شيئًا ما نكون قد أتممنا الواجب كله. وإذا كان التواضع يجعل الخاطئ بارًّا (مع ان هذا ليس تواضعًا بل اعترافًا حقًّا) فماذا يصنع التواضع في الأبرار؟ لذلك لا نضيِّع أتعابنا ولا نحرم أنفسنا الجائزة! إن الله يعلم خدماتنا أكثر منا بكثير. إذا أعطينا كأس ماء فقط فإنه لا يزدري عطاءنا، وإن تنهّدنا فيقبل تنهّدنا كحسنة يذكرها، ويخصّنا بجائزة عظيمة لأجلها. فلماذا إذًا نفكر بأعمالنا الصالحة، ونبذل جهدنا لكي نظهرها للملأ. ألا يعلم أننا إذا مدحنا أنفسنا لا يمتدحنا الله تعالى، وإن حقَّرنا ذواتنا فإنه تعالى يمجِّد أعمالنا أمام الجميع. إن العليّ لا يبخسنا جائزة أتعابنا بل يمنحنا إكليل المجد على أشياء طفيفة ويمهِّد لنا الأسباب حتى ينجِّينا من عذاب جهنم. لذلك، إن تعبنا من الساعة الحادية عشرة من النهار، فأبونا السماوي يعطينا الأُجرة كاملة، وإن ذرفنا دموعًا فالله تعالى يقبل دموعنا ليهدينا إلى الخلاص الأبدي.

لا تقل: كيف يمكن أن ظلّوا وراءه محاولين إفشال مهمّته بتبشير الأمم، مشكّكين برسوليّته لكي ينزعوا صفة السلطة عن تعليمه.

من ناحيّة أخرى، كانت عاصمة الإمبراطوريّة الرومانيّة محطّ أنظار الرسول بولس لعدّة أسباب، أهمّها أنّها تعطي مثالاً على صحة تعليمه وعلى قابليّته للتطبيق؛ فقد كانت الجماعة المسيحية تتألف في غالبيّتها ممّن هم من أصل يهودي، ومن أقلّية من أصل أمميّ. كما كان يودّ أن يحظى بمساندة مسيحيّي رومية له في جمع التبرّعات لكنيسة أورشليم وإقناع الكنيسة في أورشليم بقبول هذه التبرّعات، ودعمه في مهمّته البشاريّة في أقصى الغرب،في إسبانيا (رو١٥: ١٤-٣٢). لذلك كان على الرسول بولس أن يعرض إنجيله على مسيحيّي رومية، فإنه لم يبشّرهم، إنّما قد يكونون قد سمعوا عنه وربما من معارضيه الذين يحاولون أن يشوّهوا صورته وتعليمه.

من هنا يمكن أن نقول أن رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية لم تكن رسالة بالمعنى الضيّق للكلمة، بل كانت بمثابة «أطروحة لاهوت» كتبها الرسول انطلاقًا ممّا واجهه قبل هذه الرسالة من مشاكل خلال فترة إقامته في أفسس وآسيا الصغرى ومقدونية وكورنثوس، وسمع ما يُقال عنه هنا وهناك، وكان يعرف بعض المعلومات عن رومية (رو ١٢-١٤).

+ مكان كتابة الرسالة وزمانه:

يمكننا أن نستنتج من الرسالة نفسها أنّ الرسول كتبها قبل رحلته الأخيرة إلى أورشليم بفترة قصيرة (رو١٥:٢٥). وقد كُتبت الرسالة على الأرجح في كورنثوس حيث كان الرسول بولس مُقيمًا عند غايوس، في ربيع سنة ٥٦ م. (راجع أعمال ٢٠: ٢-٣؛رو ١٦:١،٢٢،٢٣؛١كور١: ١٤)، وقد أُرسلت على الأرجح بواسطة الشمّاسة فيبي (رو١٦:١-٢).

+ تعليم الرسالة:

«لأنّي لستُ أستحي بإنجيل المسيح، لأنّه قوّة الله للخلاص لكلّ من يؤمن، لليهوديّ أولاً ثم لليونانيّ، لأنّ فيه مُعلنٌ برّ الله بإيمانٍ لإيمانٍ كما هو مكتوبٌ: أمّا البارّ فبالإيمان يحيا» (رو ١: ١٦-١٧).

هكذا يختصر بولس الرسول بشارته، وينطلق بعد ذلك ليشرح بالتدريج فحوى إنجيله:

١- إن الخلاص الذي أتى به الرب يسوع المسيح أتى به لكلّ الناس، بغض النظر عن انتماءاتهم. وهذا ما حاول الله فعله قبل أن يرسل ابنه يسوع إلى العالم. فقد أظهر نفسه للأمم من خلال خليقته (١:١٩-٢٠)، إلاّ أنّهم ابتعدوا عنه «وعبدوا المخلوق دون الخالق» (١:٢٥). كما أعطى اليهود الناموس لكي يسلكوا فيه حتى يعودوا إليه، إلاّ أنّهم سمعوا الناموس دون أن يعملوا به (١:١٣). هكذا وضع الله الناس في خانة واحدة، وسيقفون أمامه للدينونة على قدم المساواة: «لأنّ كلّ من أخطأ بدونِ الناموسِ فبدونِ الناموسِ يَهْلِكُ، وكلُّ مَنْ أخطأ في الناموسِ فبالناموسِ يُدانُ. لأنّ ليسَ الذينَ يسمعونَ الناموسَ هُمْ أبرارٌ عندَ اللهِ بل الذينَ يعملونَ بالناموسِ هم يبرَّرونَ. لأنّه الأممُ الذينَ ليسَ عندَهُمُ الناموسُ، متى فعلَوا بالطبيعةِ ما هو في الناموسِ فهؤلاءِ إذ ليسَ لهم الناموسُ هم ناموسٌ لأنفسِهِم» (٢: ١٢-١٤).

٢- بالإيمان بيسوع فقط، بدون الناموس، يستطيع الإنسان أن يتبرَّر، وذلك بنعمة الله المجّانية. هذا الأمر يؤكّده الناموس نفسه والأنبياء (٣:

٢١). فإبراهيم الذي هو أبو الإيمان تبرّر أمام الله بالإيمان قبل الناموس: «فآمنَ إبراهيمُ باللهِ فحُسِبَ له برًّا»(٣:٤)،كما أنّه نال وعد الله بأنّه سيكون أبًا لأمم كثيرة قبل الناموس أيضًا (١٣:٤)، والختان لم يكن إلاّ ختمًا لبر الإيمان (١١:٤).

٣- أخطأ الإنسان بابتعاده عن الله، وبخطيئته دخل الموت وصار الإنسان مستعبدًا للخطيئة، غير قادر على العودة، فأتى المسيح ليصالحه مع الله بموته: «لأنّ المسيحَ إذ كُنَّا بعدُ ضُعَفَاءَ ماتَ في الوقتِ المُعيَّنِ لأجلِ الفُجَّارِ. فإنَّهُ بالجهدِ يموتُ أحدٌ لأجلِ بارٍّ. ربما لأجلِ الصالحِ يجسُرُ أحدٌ أيضًا أن يموت. ولكنَ اللهَ بيَّنَ محبَّتَهُ لنا لأنَّهُ ونحنُ بعدُ خُطاةٌ ماتَ المسيحُ لأجلِنا» (٥:٦-٨).

٤- بالمعموديّة يستطيع الإنسان أن يتخلّص من عبوديّة الخطيئة، فيتّحد بالمسيح ويصير خليقة جديدة (رو٦). غير أنّنا بالمعموديّة نصير عبيدًا للرب يسوع (١٨:٦؛ أنظر رو١: ١). ولكن ما الفرق بين العبوديّتين؟ عبوديّة الخطيئة تؤدّي إلى الموت، أمّا عبوديّة يسوع فتؤدّي إلى الحياة الأبديّة مع الله: «أمّا الآن إذ أُعتقتُم من الخطيئةِ وصِرتُم عبيدًا للهِ فلكم ثَمَرُكم للقداسةِ والنهايةُ حياةٌ أبديَّةٌ، لأنَّ أُجرَةَ الخطيئةِ هي موتٌ. وأمَّا هِبَةُ اللهِ فهي حياةٌ أبديَّةٌ بالمسيحِ يسوعَ ربِّنا» (٦: ٢٢-٢٣).

٥- الإنسان المؤمن يسلك في جدَّة الحياة (٤:٦)، وهذه الحياة هي الحياة في الروح، روح الله الذي يسكن في الإنسان المؤمن (٩:٨)، وهو الذي يساعد الإنسان الضعيف حتى يسلك بحسب مرضاة الله: «وكذلكَ الروحُ أيضًا يُعينُ ضعفاتِنا. لأنَّنا لسنا نعلَمُ ما نُصلّي لأجلهِ كما ينبغي ولكنَّ الروحَ نفسهُ يشفَعُ فينا بأناتٍ لا يُنطق بها» (٢٦:٨).

٦- الحياة في الروح تقتضي سلوكًا يليق بالله (رو ١٢ -١٣)، واهتمام المؤمنين بعضهم ببعض أمر أساسيّ، كونهم يؤلّفون جسدًا واحدًا في المسيح وأعضاء بعضهم لبعض، كلّ واحد للآخر (٥:١٢). لذلك على من هو قويّ الإيمان في الجماعة أن يسند من هو ضعيف ولا يشكّكه: «فيجب علينا نحن الأقوياءَ أن نحتمِلَ أضعافَ الضعفاءِ ولا نُرضيَ أنفسَنا» (١:١٥)، «لأنْ ليسَ أحدٌ منَّا يعيشُ لذاتِهِ ولا أحدٌ يموتُ لذاتِهِ. لأنَّنا إن عِشْنا فللربِّ نعيشُ، وإنْ مُتنا فللربِّ نموتُ. فإنْ عِشنا وإنْ مُتنا فللربِّ نحن» (٧:١٤-٨)، «لذلك اقبَلوا بعضُكُم بعضًا كما أنَّ المسيحَ أيضًا قَبلنا لمجدِ الله» (٧:١٥).

بطريركية إنطاكية

خلال زيارته للعاصمة السورية قام رئيس الجمهورية اليونانية كوستاس ستفانوبولس بزيارة صاحب الغبطة البطريرك إغناطيوس الرابع في دار البطريركية في دمشق، كما شارك في القداس الإلهي الذي أُقيم في الكاتدرائية المريمية صباح الأحد ٣ شباط ٢٠٠٢. وقد تبادل غبطته وفخامته الهدايا التذكارية.

محاضرة

يُسَرُّ معهد القديس يوحنا الدمشقي اللاهوتي - جامعة البلمند - دعوتكم إلى محاضرة باللغة الفرنسية يلقيها قدس الارشمندريت د. غريغوريوس باباتوماس (أستاذ الحق الكنسي في معهد القديس سرجيوس - باريس) بعنوان: le péché de l’Homme :Enjeux et problématique pour notre époque وذلك يوم الإثنين ٢٥ شباط ٢٠٠٢ في تمام السادسة والنصف مساءً، في قاعة «البتلوني» مقابل مستشفى القديس جاورجيوس بيروت.

أجهل ما هو معروف لدي تمامًا؟ ما هذا السؤال؟ أنغضب الله يوميًا حتى لا ننسى أعمالنا الصالحة؟ إننا لا نفتر عن ارتكاب الخطيئة غير مكترثين لها، أما إن أعطينا الفقير درهمًا فلا يبرح ذكر ذلك أفواهنا. هذا هو الجهل عينه!أما إذا تناسى الإنسان ما فعل من أعمال البرّ فيحفظها من دون خوف عليها.

فالذي يباهي بأعماله كمن يضع جواهره في السوق جهارًا. وبهذا يجلب نظر الأشرار إليها. لكن، إذ جمعها وخبّأها في بيته يحفظها من دون خوف عليها. وهكذا، إذا بقينا نردّد في ذاكرتنا أعمالنا الصالحة، نجلب غضب الله علينا، ونجعلها سلاحًا في يديّ عدونا القديم، ونثيره عليها حتى يختلسها.أما إذا لم يرها أحد،سوى من يجب أن يعلمها، فتبقى محفوظة بعيدة عن المخاطر. فلا نفاخرنَّ بأعمال البرّ كي لا تُسلَب منا ولا يحصل معنا كما حصل مع الفرّيسيّ الذي ردَّد أعماله الصالحة مع الشكر، مقدّمًا إيّاها إلى الله،فلم يستفد شيئًا، لأنه، هل يليق بمن يشكر الله أن يهين الآخرين متكبِّرًا على الخطأة؟ إذن لنكتفِ بشكر الله ولا ندين القريب لأن هذا العمل لا يكون شكرًا.

القديس يوحنا الذهبي الفم